البَابُ الثانى عشـــر

آل النبى وأهل البيت

أهل البيت :

قال تعالى فى سورة الأحزاب : (إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) . وجاء هذا القول الكريم فى معرض خطاب الله تعالى لنساء النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً * وَقَرْنَ فى بُيُوتِكُنَّ ولا تبرّجْنَ تبرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وآتِينَ الزَّكَاةَ وأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكم تَطْهِيرًا » .

وجاء بعد ذلك قوله تعالى : (واذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللهِ والْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيرًا) .

وقد اختلفوا فى تحديد المراد بأهل البيت ، فجاء فى تفسير الإمام القرطبى رضى الله عنه :

يُراد به نساؤه ، وقيل يراد به نساؤه وأهله الذين هم أهل بيته ، وقال عطاء وعكرمة وابن عباس هم زوجاته بخاصة لارجل معهن ، وذهبوا إلى أن البيت أريد به مساكن النبى صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . وقال الكلبى : « هم علىّ وفاطمة والحسن والحسين خاصة » ، وفى هذا أحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقوله تعالى : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم) . بالميم ، ولو كان للنساء خاصة

لكان (عنكن) و (يطهركن) إلا أنه يحتمل أن يكون خرج على لفظ الأهل ، قال تعالى :

(أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) .

وأضاف الإمام القرطبى قائلا :

والذى يظهر من الآية أنها عامة فى جميع أهل البيت من الأزواج وغيرهم ، وإنما قال : (ويطهركم) لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليًّا وحَسَنًا وحُسَيْنًا كانوا فيهم ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلب المذكر ، فاقتضت الآية أن الزوجات من أهل البيت لأن الآية فيهن ، والمخاطبة لمن يدل عليه سياق الكلام ، فكيف صار فى الوسط كلامًا منفصلا لغيرهن ، وإنما جرى فى الأخبار أن النبى عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآية دعا عليًا وفاطمة الحسن والحسين ، فعمد النبى صلى الله عليه وسلم إلى كساء فلفها عليهم ، ثم ألوَى بيده إلى السماء فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى ، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ، فهذه دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لهم بعد نزول الآية أحَبَ أن يدخلهم فى الآية التى خوطب بها الأزواج ، فذهب الكلبىّ ومن وافقه فصيرها لهم خاصة ولا اعتداد بقول الكلبى وأشباهه .

وأضاف الإمام القرطبى كذلك :

أما إن أم سلمة قالت : نزلت هذه الآية فى بيتى ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فدخل معهم تحت كساء خيْبرى وقال : « هؤلاء أهل بيتى » وقرأ الآية وقال : « اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » فقالت أم سلمة : وأنا معهم يا رسول الله ؟ قال : « أنتِ على مكانك وأنتِ على خير » أخرجه الترمذى وغيره ، وقال القشيرى : وقالت أم سلمة : أدخلت رأسى فى الكساء وقلت : أنا منهم يا رسول الله ؟ قال : نعم وقال الثعلبى هم بنو هاشم فهذا يدل على أن البيت يراد به بيت النسب ، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم .

وجاء فى تفسير « روح المعانى » للإمام الألوسى رضى الله عنه :

أخرج ابن سعد عن عروة : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قال : يعنى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وتوحيد البيت لأن بيوت الأزواج المطهرات باعتبار الإضافة إلى النبى صلى الله عليه وسلم بيت واحد ، وجمعه فيما سبق أو لحق باعتبار الإضافة إلى الأزواج المطهرات اللاتى كن متعددات ، وجمعه فى قوله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) دفعاً لتوهم إرادة بيت النسب لو أفرد من حيث إن سبب النزول أمر واقع فيه ، وأورد ضمير جمع المذكر فى (عنكم) و (يطهركم) رعاية للفظ الأهل ، والعرب كثيراً ما يستعملون صيغ المذكر فى مثل ذلك رعاية للفظ ، ومنه على ماقيل قوله تعالى: (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نارًا) ، خطاباً من موسى عليه السلام لامرأته ، ولعل اعتبار التذكير هنا أدخل فى التعظيم ، وقيل المراد هو صلى الله عليه وسلم ونساؤه المطهرات رضى الله عنهن ، وضمير جمع المذكر لتغليبه عليه الصلاة والسلام عليهن ، وقيل المراد بالبيت بيت النسب ولذا أفرد ولم يجمع كما فى السابق واللاحق ، فقد أخرج الحكيم الترمذى والطبرانى وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقى معاً فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله تعالى قسّم الخلق قسمين فجعلنى من خيرهما قسماً ، فذلك قوله تعالى : (وأَصْحَابُ اليَمينِ) ، (وأَصْحَابُ الشِّمالِ) فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلنى فى خيرهم ثلثاً فذلك قوله تعالى : (وأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ، وأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ، والسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) ، فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلنى فى خيرها قبيلة وذلك قوله تعالى : (وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) ، وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله تعالى ولا فخر ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلنى فى خيرها بيتاً فذلك قوله تعالى : (إِنَّما يُرِيدُ

اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)، وأنا وأهل بيتى مطهرون من الذنوب ».

يقول الإمام الألوسى : فإن المتبادر من البيت الذى هو قسم من القبيلة البيت النَّسَبِى ، واختلف فى المراد بأهله فذهب الثعلبى إلى أن المراد بهم جميع بنى هاشم ذكورهم وإناثهم ، أراد مؤمنى بنى هاشم ، وهذا المراد بالآل عند الحنفية ، وقال بعض الشافعية المراد بهم آله صلى الله عليه وسلم مطلقًا ، وأسرة الرجل على ما فى القاموس رهطه أى قومه وقبيلته الأَدْنون ، وقال فى موضع آخر : صار أهل البيت متعارفًا فى آله عليه الصلاة والسلام ، وصح عن زيد بن أرقم فى حديث أخرجه مسلم أنه قيل له : من أهل بيته ؟ نساؤه صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا — أيْمُ الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حُرِموا الصدقةَ بعده صلى الله عليه وسلم .

وفى آخر أخرجه هو أيضًا مبين هؤلاء الذين حُرموا الصدقة أنه قال : هم آل على ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العباس .

الدعاء لأهل الكساء :

وساق الإمام الألوسى حديث أم سلمة السابق الذى رواه الترمذى ، وقال بعده : وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام أخرج يده من الكساء وأومأ بها إلى السماء وقال : « اللهم أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » ثلاث مرات .

وفى بعض آخر أنه عليه الصلاة والسلام ألقى عليهم كساء فَدَكِيًّا (١)

---

(١) نسبة إلى فدك بفتحتين بلدة بينها وبين المدينة يومان بالإبل ، وهى مما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

ثم وضع يده عليهم ثم قال : « اللهم إن هؤلاء أهل بيتى ، وفى لفظ آل محمد فاجعل صلواتك وبركاتك على آل محمد كما جعلتها على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

وجاء فى رواية أخرجها الطبرانى عن أم سلمة أنها قالت : فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه صلى الله عليه وسلم من يدى وقال : « إنك على خير » ، وفى رواية أخرى رواها ابن مردويه عنها قالت : ألست من أهل البيت ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنك إلى خير ، إنك من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم » .

بيت السكنى والأهل :

ويقول الإمام الألوسى كذلك رحمه الله :

وقال بعض المحققين : المراد بالبيت بيت السكنى وأهله على ما يقتضيه سياق الآية وسباقها والأخبار التى لا تحصى كثرة ، ولا دلالة فى حديث الكساء على الحصر ، ولا فى الحديث الحسن أنه صلى الله عليه وسلم اشتمل على العباس وبنيه بملاءة ثم قال : « يا رب هذا عمى وصنو أبى وهؤلاء أهل بيتى فاسترهم من النار كسترى إياهم بملاءتى هذه » ، فأمنت أسكفة[1] الباب وحوائط البيت فقالت آمين ثلاثًا .

الملحقون بأهل الكساء :

وأضاف الإمام الألوسى يقول :

وجاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام ضم إلى أهل الكساء — على وفاطمة والحسنين رضى الله تعالى عنهم — بناته وأقاربه وأزواجه ، وصح عن أم سلمة فى بعض آخر أنها قالت : فقلت يا رسول الله : أمنا أنا من أهل البيت ؟ فقال : « بلى إن شاء الله تعالى » ، وفى بعض آخر أيضًا أنها قالت له صلى الله عليه وسلم : ألستُ من أهلك ؟ قال : « بلى » ، وأنه عليه الصلاة والسلام أدخلها

(١) أسكفة الباب أى عتبته .

الكساء بعد ما قضى دعاءه لهم ، وقد تكرر — كما أشار إليه المحب الطبرى — منه صلى الله عليه وسلم الجمع وقول هؤلاء أهل بيتى والدعاء فى بيت أم سلمة وبيت فاطمة رضى الله تعالى عنهما وغيرهما ، وبه جمع بين اختلاف الروايات فى هيئة الاجتماع ، وما جلل صلى الله عليه وسلم به المجتمعين وما دعا به لهم ، وما أجاب به أم سلمة وعدم إدخالها فى بعض المرات تحت الكساء ليس لأنها ليست من أهل البيت أصلا بل لظهور أنها منهم حيث كانت من الأزواج اللاتى يقتضى سياق الآية وسباقها دخولهن فيهم بخلاف من أدخلوا تحته رضى الله تعالى عنهم ، فإنه عليه الصلاة والسلام لولم يدخلهم ويقل ما قال لتوهم عدم دخولهم فى الآية لعدم اقتضاء سياقها وسباقها ذلك ، وذكر ابن حجر على تقدير صحة بعض الروايات المختلفة الحمل على أن النزول كان مرتين ، وقد أدخل صلى الله عليه وسلم بعض من لم يكن بينه وبينه قرابة سببية ولا نسبية فى أهل البيت توسعاً وتشبيهاً كسلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « سلمان منا أهل البيت » وجاء فى رواية صحيحة أن واثلة قال : وأنا من أهلك يا رسول الله ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « وأنت من أهلى » فكان واثلة يقول : إنها لمن أرجى ما أرجو .

ثانى الثقلين :

ويضيف الإمام الألوسى قائلا :

ما روى عن زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه من نفى كون أزواجه صلى الله عليه وسلم أهل بيته وكون أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده عليه الصلاة والسلام ، فالمراد بأهل البيت الذين جعلهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثانى الثقلين ، لا أهل البيت بالمعنى الأعم المراد فى الآية .

ويشهد لهذا ما فى صحيح مسلم عن يزيد بن حيان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم ، فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيتَ يا زيد خيراً كثيراً ، رأيتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وسمعتَ حديثه وغزوتَ معه وصليت خلفه ، لقد لقيتَ يا زيدُ خيراً كثيراً ، حدِّثنا يا زيد بما

سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : يا ابن أخى : والله لقد كبرت سنى وقَدِم عهدى ونسيتُ بعض الذى كنتُ أعى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما حدثتكم فاقْبَلوا ومالا لا تُكَلفونيه ، ثم قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى « خُما » بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال :

« أما بعد ألا يا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول رَبى فأُجيب ، وإنى تارك فيكم ثَقَلَيْن أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغَّب فيه ، ثم قال « وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم اللهَ فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاثًا ، فقال له حصين : ومَنْ أهلُ بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته مَنْ حُرِم الصدقة بعده ، قال : ومن هم : قال : هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس » الحديث ، فإن الاستدراك بعد جعله النساء من أهل بيته صلى الله تعالى عليه وسلم ظاهر فى أن الغرض بيان المراد بأهل البيت فى الحديث الذى حدّث به عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهم فيه ثانى الثقلين ، فلأهل البيت إطلاقان يدخل فى أحدهما النساء ولا يدخلن فى الآخر ، وبهذا يحصل الجمع بين هذا الخبر والخبر السابق المتضمن نفيه رضى الله تعالى عنه كون النساء من أهل البيت .

وقال بعضهم إنّ ظاهر تعليله نفى كون النساء أهل البيت بقوله : أيم الله إن المرأةَ تكونُ مع الرجل العَصْرَ من الدهر ثم يُطلقها فترجع إلى أبيها وقومها يقتضى ألاّ يكُنّ من أهل البيت مطلقًا ، فلعله أراد بقوله فى الخبر السابق نساؤه من أهل بيته ؟ أنساؤه بهمزة الاستفهام الإنكارى ، فيكون بمعنى ليس نساؤ من أهل بيته كما فى معظم الروايات فى غير صحيح مسلم ، ويكون رضى الله عنه ممن يرى أن نساءه عليه الصلاة والسلام لسْنَ من أهل البيت أصلاً ولا يلزمنا أن ندين الله تعالى برأيه لا سيما وظاهر الآية معنا وكذا العرف .

أهل القرابة والنسبة القوية :

وخلص الإمام الألوسى رضى الله عنه إلى قوله :

« والذى يظهر لى أن المراد بأهل البيت من لهم مزيد علاقة به صلى الله عليه وسلم ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام ، بحيث لا يقبح عرفًا اجتماعهم وسكناهم معه صلى الله عليه وسلم فى بيت واحد ويدخل فى ذلك أزواجه ، والأربعة أهل الكساء وعلى كرم الله تعالى وجهه مع ماله من القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نشأ فى بيته وحجره عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه ، وعامله كولده صغيراً ، وصاهره وآخاه كبيراً ، والإرادة على المعنى الحقيقى المستتبع للفعل .

« والآية لا تقوم دليلا على عصمة أهل بيته صلى الله عليه وسلم الموجودين حين نزولها وغيرهم ، ولا على حفظهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنة ، لأن المعنى حسب ما ينساق إليه الذهن ويقتضيه موقع التعليل للنهى والأمر نهاكم الله تعالى وأمركم ، لأنه عز وجل يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس (الذنوب) عنكم وتطهيركم ، وفى ذلك غاية المصلحة لكم ، ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود إليكم وهو على معنى الشرط ، أى يريد بنهيكم وأمركم ليذهب الرجس ويُطهركم إن انتهيتم وائتمرتم . والمراد بالرجس الذنب وبإذهابه إزالة مباديه بتهذيب النفس .

« وكأنّ مآل الإذهاب : التَّخْلِية ، ومآل التطهير : التَّحْلِية ، والآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم إن ينتهوا عما ينهى عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يُذهب عنهم لا محالة مبادئ ما ينتهجن ويُحَلِّيهم أجلّ تحلية بما يستحسن ، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم وتَرَتُّب الآثار الجميلة عليها قطعًا ، ويكون هذا خصوصية لهم ومَزِية على من عداهم من حيث إن أولئك الأغيار [1] إذا انتهوا وأتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك .

---

(١) غيرهم .

أهل البيت وعبادة الله :

« ولذا نجد عبادة أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم فى العبادة الظاهرة وأحسن أخلاقاً وأزكى نفساً، وإليهم تنتهى سلاسلُ الطرائق التى مبناها ، كما لا يخفى على سالكيها ، التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القُدْس ، والوقوف على أوكار الأُنس ، حتى ذهب قوم إلى أن القطب فى كل عصر لا يكون إلاّ منهم ، خلافاً للأستاذ أبى العباس المرسى حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التاج ابن عطاء الله إلى أنه قد يكون من غيرهم .

« والذى يغلب على ظنّى أن القطب قد يكون من غيرهم، لكن قطب الأقطاب لا يكون إلاّ منهم لأنهم أزكى الناس أصلا وأوفرهم فضلا » .

وأنت ترى مما نقلتُه لك من كلام الإمام الألوسى أنه قال قوله فى الموضوع وأبدع فيما قال وفصّل ، ولكنى أتفق مع أهل السنة فى أن السادة آل البيت محفوظون من الكبائر بعناية من الله تعالى ، فقد فطرهم على حبه وحب طاعته ، والناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام ، ويقول سيدى بن عطاء : إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق فيك ونسب إليك وهو تعالى فعال لما يريد وقد قال سبحانه (إنما يريد . . .) وإنما أداة حصر ، وقد قال سيدنا يوسف عليه السلام: (وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى) وقد اختص الله برحمته آل البيت ، والله يختص برحمته من يشاء ، ولا يتنافى ذلك مع جهادهم أنفسهم فى التخلية التى تعقبها التحلية لأنهم ممن قال تعالى فيهم : (يحبهم ويحبونه) .

الشيخ الأكبر وآل البيت :

وفى هذه المناسبة أمتع القارئ الكريم بروائع من كلام سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين فى الباب التاسع والعشرين من كتاب الفتوحات فى شأن سادتنا آل البيت ، فقد قال عفا الله عنه :

لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً محضاً ، قد طهره الله وأهل بيته تطهيراً ، وأذهب عنهم الرجس وهو كل ما يشينهم ، فإن الرجس هو القذ عند

العرب ، هكـــذا حكى الفراء ، قال تعالى : (إنمـــا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فهذه الآية تدل على أن الله قد أشرك أهل البيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) ، وأى وسخ وقذر أقذر من الذنوب وأوسخ ، فطهر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالمغفرة ، فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسى ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « سلمان منا أهل البيت» إلى يوم القيامة فى حكم هذه الآية من الغفران ، فهم المطهرون اختصاصًا من الله وعناية بهم ، لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا فى الدار الآخرة ، فإنهم يحشرون مغفوراً لهم ، وأما فى الدنيا فمن أتى منهم حدًّا أقيم عليه كالتائب إذا بَلَغ الحاكم أمرُه وقد زنى أو سرق أقيم عليه الحد مع تحقق المغفرة ولا يجوز ذمه ؛ وينبغى لكل مؤمن بالله وبما أنزله أن يصدق الله تعالى فى قوله : (ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فيعتقد فى جميع ما يصدر من أهل البيت أن الله قد عفا عنهم فيه ، فلا ينبغى لمسلم أن يلحق المذمة بهم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى رضى الله عنه فى حب آل البيت :

أرى حبَّ أهلِ البيت عندى فريضة ... على رغم أهل البُعْدِ يورثنى القُربا
فما اختار خيرُ الخلقِ منا جزاءه ... على هدْيِهِ إلاّ المودة فى القربى

ويقول رضى الله عنه فى الباب ٦٩ من الفتوحات المكية عند كلامه على كيفية الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم التى بيَّنها صلى الله عليه وسلم لأصحابه بقوله قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم أى مثل صلاتك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » .

« واعلم أن آل الرجل فى لغة العرب هُمْ خاصته الأقربون إليه ، وخاصة الأنبياء وآلهم هم الصالحون العلماء بالله المؤمنون ، وقد علمنا أن إبراهيم — عليه

الصلاة والسلام — كان من آله أنبياء ورسل لله ، ومرتبة النبوة والرسالة قد ارتفعت فى الشاهد فى الدنيا ، فلا يكون بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته نبىّ يشرّع الله له خلاف شرع محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول . . . فخفيت مرتبة النبوة فى الخلق بانقطاع التشريع ، ومعلوم أن آل إبراهيم من النبيين والرسل الذين كانوا بعده مثل إسحق ويعقوب ويوسف ، ومن انتسل فيهم من الأنبياء والرسل بالشرائع الظاهرة الدالة على أن لهم مرتبة النبوة عند الله ، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحق أمته وهم آله العلماء الصالحون منهم بمرتبة النبوّة عند الله وإن لم يشرعوا ولكن أبقى لهم من شرعه ضربًا من التشريع فقال؛ قولوا: اللهم صل على محمد وعل آل محمّد أى صل عليه من حيث ماله آل كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، أى من حيث أعطيت آل إبراهيم النبوّة تشريفًا لإبراهيم ، فظهرت نبوّتهم بالتشريع ، وقد قضيت ألاّ شرعَ بعدى ، فصل علىّ وعلى آلى بأن تجعل لهم مرتبة النبوّة عندك وإن لم يشرعوا ، فكان من كمال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ألحق آله بالأنبياء فى المرتبة ، وزاد على إبراهيم بأنّ شَرْعَه لا ينسخ ، وبعضُ شَرْع إبراهيم ومن بعده نسخت الشرائع بعضها بعضًا ، وما علّمنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصلاة عليه على هذه الصورة إلاّ بوحى من الله وبما أراه الله ، وأن الدعوة فى ذلك[1] مجابة ، فقطعنا أن فى هذه الأمة من لحقت درجتُه درجةَ الأنبياء فى النبوة عند الله إلا فى التشريع ، ولهذا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكد بقوله : « فلا رسول بعدى ولا نبى » فأكد بالرسالة من أجل التشريع ، فأكرم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن جعل آله شهداء على أمم الأنبياء ، كما جعل الأنبياء شهداء على أممهم. ثم خصّ هذه الأمة أعنى علماءها بأن شرّع لهم الاجتهاد فى الأحكام وقرر حكم ما أداه إليه اجتهادهم وتعبّدهم به وتعبد من قلدهم به ، كما كان حكم الشرائع للأنبياء ومقلّديهم ، ولم يكن مثل هذا لأمة نبىّ مالم يكن نبىّ بوحى مُنَزَّل ، فجعل الله وحى علماء هذه الأمة فى اجتهادهم كما قال لنبيه عليه الصلاة والسلام: (لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ) فالمجتهد ما حكَم إلاّ بما أراه الله فى اجتهاده ، فهذه نفحات من نفحات التشريع

(١) أى طلب المؤمنين من الله أن يصلى على آل رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبه الله .

ما هو عيْنُ[١] التشريع ، فلآل محمد وهم المؤمنون من أمته العلماء مرتبةُ النبوّة عند الله تظهر فى الآخرة وما لها حكم فى الدنيا إلاّ هذا القدر من الاجتهاد المشروع لهم ، فلم يجتهدوا فى الدين والأحكام إلاّ بأمر مشروع من عند الله .

الجمع بين الأهل والآل :

وأضاف رضى الله عنه يقول :

« وإن اتفق أن يكون أحد من أهل البيت بهذه المثابة من العلم والاجتهاد ، ولهم هذه المرتبة كالحسن والحسين وجعفر وغيرهم من أهل البيت ، فقد جمعوا بين الأهل والآل ، فلا تتخيل أن آل محمد صلى الله عليه وسلم هم أهل بيته خاصة ، ليس هذا عند العرب فإن الآل لا يضاف بهذه الصفة إلاّ لكبير القدر فى الدنيا والآخرة ، ولذلك قيل لنا : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم أى من حيث ما ذكرناه لا من حيث أعيانهما خاصة دون المجموع ، فهى صلاة من حيث المجموع ، وذكرنا إبراهيم عليه السلام لأنه تقدم بالزمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت أنه سيد الناس يوم القيامة ، ومن كان بهذه المثابة عند الله كيف تحمل الصلاة عليه كالصلاة على إبراهيم من حيث أعيانهما ، فلم يبق إلاّ ماذكرناه[٢] ، وهذه المسألة هى عن واقعة من وقائعنا فلله الحمد والمنة » .

ومن ذلك ترى أن الشيخ الأكبر أدخل بإلهامه الغزير وفتحه الفياض فى آل البيت العلماء الربانيين الذين آتاهم الله رحمةً وعلماً ، ولا حرج على فضل الله ، فإنه لا مانع لما أعطى ولا مُعطى لِمَا مَنَع ، غير أننا رأينا فيما سبق أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ألحق سلمان الفارسى رضى الله عنه بأهل البيت بنص خاص . وكذلك أدخل واثلة بنص خاص فى أهل البيت ، والمشاهد فى واقع الأمر أن أهل البيت من الحسنيين والحسينيين على الخصوص هم أئمة أهل العلم

---

(١) أى أن المجتهدين فى الأمة المحمدية إنما يجتهدون فى إطار الشريعة المحمدية ولا يأتون بشرع جديد لأن مصدر اجتهادهم الكتاب والسنة .

(٢) أى صل على سيدنا محمد من حيث ماله آل لا من حيث شخصه كما صليت على إبراهيم وآله كما سبق أن بين ذلك رضى الله عنه .

والعمل فى كل قرن ، وقد سادوا المؤمنين بطيب عنصرهم وطهارة نفوسهم وسخائهم وعظم جهادهم فى سبيل الله عز وجل بالنفس والمال وزُهدهم الفطرى فى زخرف الدنيا وطرحها من قلوبهم ، فهم كما يصفهم العارف بالله سيدى الشيخ أحمد الحلوانى فى قصيدته المسماة « الحلواء فى مدح بنى الزهراء » .

بنفسى أفدى الزهر من بَضعة الزهرا ... وإن هُم رضوا نفسى فقد عَظُمت قَدْرا
هم الدينُ والدنيا لعمرى هُمُو هُمُو ... فقل فيهمو ماشئت لاتَرْهَبَنْ نُكْرا
وعالٍ بهم مَنْ شئت إن ذَكُروا العُلا ... وفاخر بهم مَنْ شئت إن ذكروا الفخرا
بدورٌ سمت عن شمسِ أكرم مُرْسَلٍ ... أناروا دياجى الكوْنِ بالطلعة الغَرّا
وبالحلم والنَّدَى وبالبر والتَّقوى ... وبالعلم والفتوى وبالذكر والذكرى
ليَهْنِ بنيه المجد نُظِّم هكذا ... نبيُّ الهدى فاطرب وحَيْدَرُ والزهرا
بنفسىَ أهلُ البيت من مثلهم عَلاَ ... وهم فى عيون المجد نورٌ قد افترّا
ومَنْذَا يُدانى أو يُقارب بضعةً ... لهم تنتهى العلياءُ والرتبة الكبرى
محبتهم بابُ الرضا ورضاهمو ... يُسام بأرواح المحبِّين لو يُشرى
فيا من يُواليهم ويحفظُ ودَّهم ... ويُكرمُ مثواهم هنيئًا لك البشرى
فلا بد يومَ العرض تسمع قائلا ... تفَضَّل تَفضَّل فادخل الجنّة الخَضْرَا

رأى الفخر الرازى :

ويقول الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه فى تفسيره ما يأتى :

« فى قوله تعالى: (إنما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويُطهركم تطهيراً) يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تَنْتَفِعَنَّ الله فيما تأتين به وإنما نفعه لكُنَّ ، وفيه لطيفة وهى أن الرجس قد يزول عيناً ولا يطهر المحل فقوله تعالى : (ليذهب عنكم الرجس) أى يزيل عنكم الذنوب ، ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ، وأضاف : ثم إن الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكَّرين (ليذهب عنكم الرجس) ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم ، واختلفت

الأقوال فى أهل البيت . والأولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلىّ لأنه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى صلى الله عليه وسلم وملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم » . أقول وهو كلام بديع كما ترى .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى سورة الشورى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجرًا إِلَّا المَوَدَّة فِى القُربَى ومن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نزِدْ لَهُ فيها حُسْناً إِنَّ الله غَفُورٌ شَكُورٌ) .

قال الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه : نقل صاحب الكشاف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبًا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنًا مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشّره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يُزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السُنَّة والجماعة ، ألا ومن مات على بُغْض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبًا بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بُغْض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة ، ثم أضاف الإمام الرازى يقول :

« وأنا أقول : آل محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعليًّا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل .

« وأيضًا اختلف الناس فى الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضًا آل ، فثبت أن جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؛

فمختلف فيه ، وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يارسول الله مَنْ قرابتُك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ، فقال على وفاطمة وابناهما ؛ فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي صلى الله عليه وسلم ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه :

« الأول : قوله تعالى (إلاّ المودة فى القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق .

« الثانى : لاشك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب فاطمة عليها السلام ، قال صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة منى يُريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها » وثبت بالنقل المتواتر عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب عليًّا والحسن والحسين ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله تعالى :

(واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) . ولقوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَو يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) ولقوله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكم الله) . ولقوله تعالى : (لقدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) .

« الثالث : أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد فى الصلاة وهو قول المصلى : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد فى حق غير الآل .

« فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب ــ وقال سيدى الإمام الشافعى رضى الله عنه :

يا راكبًا قِفْ بالمحصب من منًى ... واهتف بساكن خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضًا كما نظم الفراتُ الفائض
إن كان رفْضًا حبُّ آلِ محمد ... فليشهد الثقلان أنى رافضى

كما قال رضى الله عنه :

يا آل بيت رسول الله حُبُّكمو ... فرضٌ من الله فى القرآن أنزلهُ
يكفيكمو من عظيم القدر أنكمو ... من لم يُصَلِّ عليكم لاصلاة لهُ

« وقوله تعالى : (إلا المودة فى القربى) فيه منصب عظيم للصحابة ، لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقرَّبون) فكل من أطاع الله كان مُقَرَّبًا عند الله تعالى فدخل تحت قوله : (إلا المودة فى القربى) . والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلاّ على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العِتْرة والصحابة [1] (أما مذهب الشيعة فخارج عما ذهب إليه أهل السنة والجماعة) .

« وسمعت بعض المُذكّرين قال إنه صلى الله عليه وسلم قال : " مثلُ أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا " وقال صلى الله عليه وسلم : " أصحابى كالنجوم بأيهم اقْتَدَيْتم اهتديتم " ونحن الآن فى بحر التكليف وتَضْرِبُنا أمواج الشبهات والشهوات ، وراكب البحر يحتاج إلى أمرين :

« أحدهما : السفينة الخالية عن العيوب والثقب ،

« الثانى : الكواكب الظاهرة والطالعة النيرة ، فإذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالبًا ، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة ، فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة . وقوله تعالى (إلا المودة فى القربى) جُعِلوا مكانًا للمودة ومقرًّا لها ، كقولك : لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله ، وقوله تعالى : (إن الله غفور شكور) الشكور فى حقه تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين فى إيصال الثواب إليهم وفى أن يزيد عليه أنواعًا كثيرة من التفضيل ، ألا رضى الله عن إمامنا الفخر الرازى وعن علماء الأمة الأعلام .

من إلهام شيخى :

ويرضى الله عن شيخى العارف بالله سيدى الشيخ على عقل إذ قال فى سادتنا

---

(١) ويقول سيدى الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى رضى الله عنه فى هذا المعنى :

ألا إننى فى حب آل محمد ... من الشيعة العليا ولكننى سنى

طبعت على حب الصحابة كلهم ... كآل رسول الله من مبتدا سنى

آل البيت رضوان الله عليهم فى إلهامه الفورى الذى نقلناه عنه عندما طلب إليه أحد الحاضرين أن يأتى بأبيات على وزن البيت الآتى وقافيته [١] :

بنفس أفدى الزهر من بَضْعةِ الزهرا ... وإن همْ رضُوا نفسى فقد عَظُمت قدْرا

فقال توًّا طيب الله ثراه :

بنفس أفدى الزهر من بضعة الزهرا ... بهم نِلْتُ كلَّ الخير دُنْيای والأخرى
لقد غرسونى من زهور رياضهم ... فطابت حياتى من مكارمهم زهرا
إذا قيل لى تهواهمو قلتُ مِلْكهم ... ووقف يمين لايُباع ولا يُشْرى
إذا عَشِيَتْ[٢] عينى فَطَنَّ جوانحى ... عيونٌ تُرينى سرَّ أنوارهم جَهْرا
تساموا على كل الأنام فضائلا ... وقد بيّن القرآنُ أوصافَهم طُهْرا
وعَينا من القرآن سورة هل أتى ... صفا سعيُهم لله واستوجب الشكرا
فلو أن جود العاملين أقيسه ... على جودهم يومًا لما مثّل العشرا
جداول من بحر النبىّ محمد ... فما مثلها تلقى جداول أو بحرا
فإن كان ذنبى أنَّ قلبى يُحِبهم ... فإن ذنوبى لن تلم بها حصرا
وما أحسن الدنيا على صدق ودهم ... وما أحسن الأخرى لتابعهم ذُخْرا
وها أنا مشتاق إليهم وسائر ... على حبهم أنفقت سعيى والعمرا
أحب وأستجدى وأهوى وأهتدى ... ولى لذةٌ فى مدحهم تُشْلج الصدرا
إذا نظرونى زال من قلبىَ الأسى ... وإن منحونى عشت أغترف الخيرا
على بابهم أسمو سُموَّ أُولى النهى ... فإن همُ رضوا نفسى فقد عَظُمت قدرا

وقد طلب إليه آخر أن يُخَمِّس له البيت الآتى :

هات النجوم أصغ بها أبياتى ... إن المقام سما عن الكلمات

فقال توًّا فى روعة ظاهرة :

آل النبى تزايدت لوعاتى ... لاتحرمونى الوصل قبل مماتى
ياطالبًا وصفى لهم بالذات ... هات النجوم أصُغ بها أبياتى
إن المقام سما عن الكلمات

---

(١) يريد بهذا الطلب اختبار الإلهام الفورى الذى اشتهر به الشيخ من عطاء ربه لأوليائه ، ولى رسالة مطبوعة عنه رضى الله عنه بعنوان : شاعر الأولياء .

(٢) كان رضى الله عنه كفيف البصر .

تحية الشاعر الصديق :

وقد كنت طلبت من الصديق الوفيّ الراحل المرحوم الأستاذ محمد جاد الرب أن يمدنى بشيء من شعره الرقيق لأضمنه كتابى « أم المؤمنين — السيدة خديجة الكبرى » وكان عفا الله عنه شاعراً مطبوعاً ، فقدم لى رباعية أثبتها فى ذلك الكتاب ومنها :

على الأعتاب يا آل النبيّ ... وقفنا بين أيديكم نحيّ
نحيّى بالصلاة على الصفيّ ... محمد النبيّ الهاشمى

على الزهراء أم النيّرين ... على السبطين قرة كل عين
حبيبَىْ روحنا : حسنٍ حسين ... على الأب فى معاليه عليّ

بكم وبزينب طرّزت شعرى ... بكل سُلالة البيت الأغر
وقفت عليكم شعرى ونثرى ... فياحظّ الفواصل والرَّوِى

لقد باركتم الأقطارَ طُرا ... بمكة أو بطيبة أو بمصرا
مقامكم بها قد طاب نَشْرا ... فطاب الكون بالعَرْفِ الشَّذى

على أبوابكم بابًا فبابًا ... أناديكم وأنتظر الجوابا
لأدخل بالرضا تلك الرحابا ... فإنّ رضاءكم شِبعَى وريّ

نشأت وعشت محسوبًا عليهم ... وسوف أموت منسوبًا إليهم
فصَلِّ عليهمو ربّى وسلِّم ... وأسْعِدْنى بِقُرْبٍ سرمدىّ